الإستجابة

للمعلم برمهنسا يوغانندا

استجابة الله للإنسان حقيقة مؤكدة. لقد اختبرت ذلك بنفسي. فقد كنت في حضرة قديسين أثناء تواصلهم الفعلي مع الله. وكل واحد أيضاً يمكنه التحدث إلى الله والحصول على استجابته.

الشخص العادي يصلي لله بعقله فقط وليس من قلبه الملتهب شوقاً وحماساً روحيا. الابتهالات العقلية الجافة هي أضعف من أن تلفت انتباه الله أو تجلب استجابة منه. يجب أن نخاطبه تعالى بثقة ويقين وبشعور وديّ كالشعور نحو أعز الناس إلينا وأحبهم إلى قلوبنا. يجب أن تكون علاقتنا مع الله مبنية على المحبة الخالصة المجرّدة وغير المقيّدة بشروط.

كما ينبغي أن يكون طلب الحصول على استجابة من الله قويا ومتواصلا. فالصلاة التي يعوزها الإيمان لا تكفي. أما إذا تفاعلت وأقنعت ذاتك بأنه سيستجيب لك، وإن رفضت الشك والارتياب مهما طال انتظارك لاستجابته؛ وإن تابعت إيمانك وثقتك به فسيستجيب إليك يوما ما.

لقد دوّنت في كتابي "مذكرات يوغي: السيرة الذاتية" بعض المناسبات العديدة التي تحدثت بها إلى الله. حدث اختباري الأول لسماع الصوت الإلهي عندما كنت صبيا صغيرا. فإذ كنت أجلس على فراشي ذات صباح، استغرقت في تفكير تأملي عميق وتساءلت:

"ما الذي يكمن خلف ظلمة العينين المغمضتين؟"

اكتسحتني قوة هذا التفكير وعلى الفور تلألأت ومضة من النور لبصري الداخلي أظهرت لي الأشكال المقدسة لقديسين يجلسون متأملين في مغاور الجبال، وراحت تمر كصور سينمائية مصغّرة على الشاشة الكبيرة المشعة بداخل جبيني. وهتفت بصوت مرتفع:

"من أنتم؟"

وجاء الجواب السماوي الذي تعجز عن وصفه الكلمات، وقد اهتز له كياني بأسره:

"نحن رجال الله: يوغيو الهملايا."

فقلت والشوق يملأ قلبي:

"آه كم تهفو نفسي للذهاب إلى الهملايا والانضمام إلى حلقتكم المباركة!"

وتلاشت الرؤيا لكن الأشعة الفضية امتدت على شكل دوائر تزداد اتساعا في الفضاء اللامتناهي، فقلت متسائلا:

"ما هذا الوهج الرباني العجيب؟"

فجاء الجواب بنغمة سماوية:

"أنا النور الكوني".

ويا لها من سعادة عظمى حصلت عليها من استجابة الله، فعقدت العزم منذ تلك اللحظة على البحث عنه حتى أعثر عليه وأذوب به.

معظم الناس يظنون أنه لا يوجد سوى ظلام خلف العينين المغمضتين. ولكن عندما تتقدم في الروحيات وتركّز على العين "الوحيدة" في الجبهة، ستجد أن بصرك الداخلي قد انفتح، وسترى عالما جديدا مليئا بالأنوار والمحاسن العليا. كما ستظهر لك رؤى قديسين كيوغيي الهملايا الذين أبصرتهم. وإن تعمّق تركيزك أكثر فأكثر ستسمع أنت أيضا الصوت الإلهي.

الأسفار المقدسة تخبرنا مرارا وتكرارا عن وعد الله لنا وقربه منا.

"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب"

"إن تطلبوه من كل قلوبكم تجدونه."

"الرب معكم ما دمتم معه "

"من يقرع باب الله بشوق ما عليه من مزيد يُفتح له الباب."

إن استطعت التناغم مع الله ولو لمرة واحدة فستحصل غالباً على استجابته. ولكن ذلك صعب جدا في البداية. ليس من السهل التعرف على الله لأنه يريد أولا أن يتيقّن من رغبة المريد الصادقة في التعرف عليه. إنه يعرف إن كان الإنسان يريده حقا أم يريد شيئا آخر بدلا منه. ولن يستجيب ما لم تكن الرغبة في التعرف عليه هي الرغبة الأولى في القلب؟

تقدمة الإنسان الوحيدة لله

الخليقة بأسرها هي امتحان كبير للإنسان. فبتصرفنا هنا في هذا العالم نبرهن إن كنا نريد الله فعلا أم نريد هباته. الله لن يطلب منا كي نحبه أكثر من أي شيء آخر، لأنه يريد محبتنا خالصة نقية ونابعة من القلب. ذلك هو السر الكامل الكامن في المسرحية الكونية. فخالقنا يحنّ لمحبتنا له ويريدنا أن نقدّم حبنا إليه بصورة عفوية تلقائية دون أن يطلب منا ذلك. محبتنا هي الشيء الوحيد الذي يفتقر له الله ما دمنا لا نمنحه تلك المحبة عن طيب خاطر.

وهكذا نجد أنه حتى الله لديه ما يرغب في إحرازه: حبنا! ولن نعرف طعم السعادة ما لم نمنح الله حبنا. فما دمنا تائهين على هذه الأرض تتقاذفنا الأهواء، متحرقين لعطايا الله وفي نفس الوقت متجاهلينه الذي هو أكرم الكرماء وأسخى المانحين فسنظل متعثرين على دروب الشقاء والضياع.

وحيث أن الله هو روحنا وجوهر كياننا فلن نستطيع تحقيق غايتنا في الحياة ما لم نتمكن من إظهار حضوره في داخلنا. هذه حقيقة مقررة. ولأننا ذوو طبائع إلهية كوننا جزء لا يتجزأ من الله، فلن نتمكن من امتلاك الرضاء الدائم من أي شيء مادي على الإطلاق. وما لم نحصل على السعادة في الله فلن نتمكن من الحصول عليها من أي شيء آخر.

الأسفار المقدسة تخبرنا أن الله خلق الإنسان على صورته. ما من أحد استطاع أن يوضّح بجلاء كيف أن الإنسان مخلوق على صورة الله. الله روح والإنسان بجوهره هو أيضا روح. هذا هو المعنى الرئيسي للفقرة أعلاه. ولكن هناك أيضا العديد من التفسيرات لهذه الفقرة.

الجسم البشري بكامله بما فيه من وعي وحركة هو صورة مصغّرة للإلوهية. في الوعي تكمن المعرفة الكلية والوجود الكلي.
باستطاعتنا التفكير بأننا في نجم القطب أو المريخ، إذ بالفكر لا توجد حواجز بيننا وبين أي شيء آخر. فبفعل الوعي داخل الإنسان يمكن القول بأن الإنسان مخلوق على شبه الله.

الوعي يعرف ذاته، وبالمثل فإن الله من خلال وعيه الكوني على دراية وثيقة بكل ذرة من ذرات الكون.

الإنسان يمتلك أيضا كل القدرات الكامنة للوعي الكوني، مع أن الذين ينمّون تلك القدرات العظيمة الهاجعة في داخلهم هم قلائل جدا.
والإنسان أيضا يمتلك الإرادة وله القدرة على الإبداع. الحيوانات لا تمتلك القدرة على تبصّر الأمور في حين يمتلكها الإنسان. فكل الخاصيات التي يمتلكها الله من وعي وعقل وإرادة وشعور ومحبة يمتلكها الإنسان أيضا. ومن هذا القبيل يمكن القول بأن الإنسان مخلوق على صورة الله.

النشاط الذي نحس به في الجسد يشير إلى وجود قوة أعظم بكثير مما يلزم لإعالة وصيانة الآلة الجسدية. إن نفس الطاقة الكونية التي تعيل وتدير الكون بأسره تعمل أيضا في أجسامنا. الطاقة الكونية هي مظهر من مظاهر الله. ولذلك فإننا مصاغون على صورته حتى من الناحية الجسدية.

الجسم ليس مادة بل نشاط.

وما هو النشاط الموجود في أجسامنا؟ إن جسمنا مكوّن من جزيئات، والجزيئات مكوّنة من ذرات، والذرات من الكترونات، والالكترونات من نشاط حيوي؛ من أعداد لا حصر لها من ذرات النشاط. نستطيع بالعين الروحية أن نبصر الجسد ككتلة من ذرات النور المتراقصة: من النشاط المنبعث من مليارات الخلايا.

إنه من قبيل الوهم يبصر الإنسان جسده كتلة من اللحم والعظم. ولكن الحقيقة هي أن الجسم ليس مادة بل نشاط أو طاقة.

وحيث يفكر الإنسان بأنه كائن من لحم ودم يتصور نفسه أحيانا بأنه ضعيف. ولكن إن أقنعت نفسك بأن جسمك هو موجة من بحر الوعي الإلهي فستدرك أن الجسم ليس سوى مظهر مادي للعناصر الخمسة المهتزة التي يتكوّن منها الجسم، وهي التراب والماء والنار والهواء والأثير.

إن الكون بأسره – الذي هو جسم الله – مركّب من نفس العناصر الخمسة التي تؤلّف جسم الإنسان.

الإنسان يمتلك كل القوى. فعندما يتوحد وعينا مع وعي الله نمتلك المقدرة على تغيير أو تعديل أي شيء نريده. قطع السيارات يمكن استبدالها أو تغييرها حسب الحاجة؛ ولكن الآلة الجسدية هي أكثر تعقيدا. العقل الذي يتحكم بكل الخلايا هو العامل الأساسي. عندما يتمكن الإنسان من التحكم المطلق بالعقل يصبح بإمكانه تبديل أو تعديل خلايا وأعضاء الجسم حسب الرغبة وبقوة الإرادة. عندما يبلغ تلك الحالة سيتمكن بمجرد التفكير فقط الطلب من الذرات أن تعيد تشكيل ذاتها وتنبت طاقماً جديدا من الأسنان الطبيعية. عندما يتقدم الإنسان روحيا يمتلك القدرة على التحكم التام بالمادة.

الله روح ونشاطه الكوني ينبض في كل القلوب، ووعيه الإلهي حالّ في كل العقول المتناغمة معه.

وبفعل قانون الله للجذب والدفع فإن خلايا الجسم البشري تتماسك بتناسق وانسجام بنفس الكيفية التي تحافظ بها النجوم على توازنها في مساراتها المحددة. إن الله الكلي الوجود دائم الحركة والنشاط مثلما هو السكينة المطلقة في الكون. ما من مكان مقفر من صور الحياة. فبسخاء وتنوّع لا حد لهما يأتي الله للوجود – دون توقف أو انقطاع – بصور وأشكال متباينة لا حد لها ولا انتهاء: مظاهر لا تنضب لنشاطه الكوني.

القديسون يسمعون صوت الله. ففي كل مرة كان أحد المعلمين المستنيرين يصلي، كان الصوت الرباني يبدو آتياً من السماء. الله لا يحتاج إلى حنجرة ليتكلم من خلالها. إن كان الإبتهال عميقاً وحاراً بما فيه الكفاية فإن اهتزاز ذلك الابتهال سيجلب استجابة اهتزازية فورية من الله. وتلك الاستجابة تظهر في أية لغة يفهمها المصلي.

إن اهتزازات اللغات المختلفة هي واحدة في الأصل. والله كونه الاهتزاز الكوني فهو يعرف كل اللغات. ما هي اللغة؟ إنها اهتزاز معيّن. وما هو الاهتزاز؟ هو نشاط. وما هو النشاط؟ هو فكرة معيّنة.

ومع أن الله يسمع كل صلواتنا فإنه لا يستجيب دائما لها. ولكن عندما يصبح الدعاء ديناميكياً وصادراً من أعمق أعماق الروح فإنه يستجيب بكل تأكيد.

ولكن ما أقل الذين يثابرون في تأملاتهم ونداءاتهم القلبية لله! في كل يوم هناك "شواغل هامة" تصد الإنسان عن واجبه الأهم نحو الله. إن الشيطان يحاول إقصاءنا عن الله بشتى الوسائل والطرق. لن تأتينا استجابة من الله إن تمتمنا بصلاة سطحية قصيرة، وشرعنا في القيام بشيء آخر.

عندما يعرب المحب عن حبه لحبيبته بصورة آلية فإنها تعرف بأنه غير صادق معها، لأنها "تصغي" لما يقوله قلبه. وبالمثل عندما يصلي المريدون لله فإن الله يعلم ما إذا كانت قلوبهم جافة لا أشواق بها، أو ما إذا كانت أفكارهم تجري وراء بضاعة الدنيا. إنه لا يستجيب للصلوات الفاترة. أما المريدون الذين يتشوقون إليه ويناجونه من أعماقهم فإنه يأتي لهم بكل تأكيد ويباركهم!

الوقت ثمين ويجيب عدم إضاعته بحثا عن الأشياء الصغيرة في الحياة. طبعاً الحصول على الهبات الإلهية أسهل بكثير من الحصول على أعظم هبة في الوجود: الله ذاته. ولكن لا تقنع بشيء دون الأسمى. إنني لا أهتم للهبات التي تأتيني من الله ما لم أرَ الله نفسه من

وراء تلك الهبات والعطايا. لماذا تحققت كل رغباتي؟ لأنني أتعمق في الدعاء والتأمل، وأذهب إلى الله مباشرة. وإنني أراه في كل مظهر من مظاهر الوجود. إنه سيد الجميع، وهو أقرب من القريب وأعز من الحبيب، وهو حقيقي أكثر من أي إنسان أو أي شيء في الوجود. إنه مجهول ومعلوم في نفس الوقت.

الله ينادينا ويريدنا أن نعود إليه، وهذا حقنا وإرثنا السماوي. سنغادر هذه الأرض عاجلا أم آجلا، لأن الأرض ليس مقرنا الدائم. الحياة الأرضية هي مجرد مدرسة وضعنا الله بها لنتعلم الدروس ونحسن التصرف.

الله كنزنا الوحيد في هذه الدنيا وهو وحده الذي سيبقى معنا ويلازمنا عندما يهجرنا الجميع."

البشر يبحثون عن السعادة في هذه الأمور أو تلك، لكنهم ألعوبة في يد القدر. عندما يدرك الإنسان هذه الحقيقة يبدأ في البحث الجاد عن الله.

يجب أن نطالب بإرثنا السماوي المفقود. وكلما كان الإنسان غيرياً، بعيدا عن الأنانية وحب الذات، كلما حاول إسعاد الآخرين والتفكير الدائم بالله. وعلى نقيض ذلك كلما كان تفكيره محصوراً بالأمور والمشتهيات الدنيوية، كلما هربت السعادة منه وابتعد الرضاء عنه.

لم يضعنا الله على هذه الأرض كي نكتوي بنيران المتاعب والآلام. بضاعة العالم غير نظيفة لأنها تطرد الفرح الإلهي وتسد منافذ الروح. السعادة العظمى تأتي من التفكير المتواصل بالله الخير الأعظم.

لماذا لا نفكر وننظر للأمام؟ ولماذا نعتبر الأمور غير الجوهرية هامة جداً؟ معظم الناس يحصرون تفكيرهم في الفطور والغداء والعشاء والعمل والنشاطات الإجتماعية، إلى ما هنالك. آن الأوان لأن يبسّط الإنسان حياته ويتوجه بعقله وقلبه إلى الله. هذه الأرض هي مكان التحضير للعودة إلى البيت السماوي. متاعبنا تأتي لأننا نتغافل عن الله، لكنه دائم الانتظار.

كم أتمنى لو أن الله منحنا قدراً أكبر من الذوق! لدينا حرية الاختيار، ونحن أحرار في قبول الله أو طرده من حياتنا. وها نحن نستجدي القليل من المال والقليل من الحب والسعادة من البشر. لماذا نعدو وراء ما سيؤخذ منا يوما ما؟ إلى متى سنتأوه تحسراً على المال أو نئنّ من المرض والمصاعب؟ لقد آن الأوان لربط حياتنا بالله الذي هو وحده قادر على تخليصنا من كل معاناتنا المادية والمعنوية.

العارفون بالله ينصحوننا بعدم الولع والتعلق بكل ما من شأنه أن يصدنا عن بلوغ السعادة الروحية. الزهد لا يعني ترك كل شيء، بل التخلي عن بعض الملذات والمشتهيات من أجل النعيم الأبدي. الله سيستجيب لنا عندما نعمل من أجله ونجعله محور حياتنا. يجب أن نناديه ونناجيه على الدوام من أعماقنا وأن نتحدث إليه بأي خاطر يرتسم في أذهاننا ونطلب منه الظهور لنا وتعريفنا على ذاته وألا نعتبر صمته جوابا.

في البداية سيستجيب لنا بمنحنا شيئا نريده كدليل على أننا في باله. ولكن يجب أن لا نقنع بهداياه، بل ينبغي ألا نرضى بشيء سواه. وأخيرا سيفتح الباب ويعطينا الجواب فنسعد بحضوره، ونبصر نوره.

عندما تمتلك عطشاً قويا لله، وعندما لا تولي أهمية قصوى لأي شيء آخر، سواء لتجارب الحياة أو لتجارب الجسد، فإنه سيأتي إليك.

تذكر: عندما يكون نداء قلبك حارا، وعندما لا توقف بذل المجهود أو تعترف بالقيود فإنه سيأتي إليك.

يجب أن تطرد من ذهنك كل الشكوك بأن الله سيستجيب. معظم الناس لا يحصلون على استجابة الله بسبب تشككهم وارتيابهم. إن كان لديك التصميم التام للحصول على شيء ما فلن يصدك شيء عن بلوغه. عندما توقف المجهود وتكف عن المحاولة تكون قد حكمت على نفسك بالفشل. أما ذوو العزيمة والنجاح فلا يعرفون المستحيل.

الإيمان هو قوة الله اللامتناهية في نفوسنا. الله يعلم عن طريق وعيه بأنه خلق كل شيء. لذلك الإيمان يعني المعرفة والاقتناع بأننا مخلوقون على صورة الله.

عندما نكون متوافقين مع وعيه في داخلنا نستطيع أن نحقق كل ما نريده. تذكّر أن إرادة الله الكلية تكمن في إرادتك. عندما تهاجمك المصاعب ومع ذلك ترفض الاستسلام، وعندما تصبح مقتنعا تمام الاقتناع بأهمية بلوغ الغاية المقدسة ستجد الله مستجيباً لك. وكأنني بالله يقول لنا:

نادوني... تحدّثوا إليّ من أعماق قلوبكم..

ناجوني من صميم كيانكم..

بتصميم مجيد ومواظبة رائعة وعزيمة راسخة،

مهما طال صمتي.

فإن همستم لي في قلوبكم على الدوام

سآتي إليكم وأنعم عليكم!

ومتى حصلت على تلك الإجابة المقدسة ولو لمرة واحدة، فلن تشعر بعدها بأنك منفصل عنه. الإختبار المقدس سيرافقك على الدوام. ولكن تلك "المرة الأولى" صعبة لأن القلب والعقل غير مترسخين في القناعة المطلقة، ولهذا يتسلل الشك بسبب المفاهيم والقناعات المادية الماضية.

وليس آخراً سيستجيب الله لكل إنسان مؤمن به ومتشوق له بصرف النظر عن الطبقة أو اللون أو المعتقد.

أسأله تعالى أن يسمع دعاءكم

ويستجيب لكم

ويغمركم بحضوره المبارك

ويحرسكم من كل مكروه

والسلام عليكم.

برمهنسا يوغانندا